الجذور الاجتماعية لظاهرة عبادة الفرد المجتمع العراقي أنموذجاً

كانت المعتقدات الدينية في العراق القديم تتسم بما يعرف عن الآثاريين اليوم بـ(مبدأ التشبيه Anathropomorphism)، الذي يعني تشبيه الآلهة بالبشر ونسب سائر صفات البشر الروحية والمادية اليها. ويسجل التأريخ لنا أن الملك العراقي كلكامش كان ملكاً قوياً وجباراً، أقرب الى الآلهة وأبعد عن البشر، وكان الإله أكبر بكثير من الإنسان.

وعلى الرغم من ذلك، لم يتحدث أحد عن عبادته أو تقديسه في تلك الأزمنة. ولكن المجتمع العراقي ـ بعد هذه القرون الطويلة ـ تحول الى العكس تماماً، أي الى تشبيه البشر بالآلهة وإضفاء سائر صفاتها عليهم.

علاء جواد كاظم

إن عبادة الفرد (Individual worship) هي تمجيد وتعظيم للفرد الذي يمارس الحكم، أو الملك (الحاكم.. الراعي.. السلطان.. الأمير.. الحكيم)، وتشمل عبادته أداء أشكال مختلفة من طقوس الطاعة العمياء البالغ فيها واللامنطقية، وهي بالطبع لا تحتمل التحليل ولا السؤال. وهي طقوس دينية الشكل والضمون، مثل الإنحناء له، والخضوع، وذبح النذور والقرابين (كان الكثير من العراقيين يذبحون سنوياً بمناسبة ولادة القائد الخلوع أعداداً كبيرة تجاوزت المئات من رؤوس الماشية) أو السجود له وتقبيل يده الكريمة ومظاهر أخرى مثل تسميته بأسماء عديدة وكثيرة (فكان لعبد الكريم قاسم مثلاً (50) اسماً تبدأ بالزعيم الأوحد والزعيم الغالي والرجل المعجزة ومعجزة السماء والزعيم الفذ والأوحد والمنقذ، بينما كان لصدام حسين أكثر من 120 اسماً ولقباً وفعلاً وزعت على الكتيبات المحلية عام 1988 بوسترات لصورة صدام حسين مبتسماً فيها ابتسامته المعهودة كتب عليها 120 اسماً لسيادته وزعت يومها على جميع الدوائر الرسمية وغير الرسمية)، إضافة إلى مظاهر أخرى للعبادة مثل مباركته من قبل الرب (كما حدث مع الزعيم عبد الكريم بعد محاولة اغتياله في سيارته، يذكر الزعيم الركن أحمد محمد يحيى وزير الداخلية في عهد قاسم أن عبد الكريم كان يعتقد أن العناية الإلهية هي التي حفظته وجعلته على قيد الحياة إثر محاولة الاغتيال التي تعرض لها في شارع الرشيد عام 1959 ولذلك وضع بدلته العسكرية الملطخة بالدماء في حافظة زجاجية وكان يطلع عليها أي وفد أو شخص يزوره بعد أن يقول له بأن الله قد خلقه لينقذ هذا الشعب، مقابل ذلك يمضي برزان التكريتي الى أبعد من هذا في كتابه (محاولات اغتيال الرئيس صدام حسين) الذي يصل به الى اعتقاده بل تأكيده مباركة الله لحياة هذا الرجل الكريم الذي خلقه الله كمخلص ومنقذ لهذا الشعب العظيم بل للأمة العظيمة".

وهناك ترويج لبعض الحكايات والقصص والمواقف الثيولوجية لدعم علاقة هذا الحاكم أو ذاك بالعالم المقدس والديني وتقريبه الى الأولياء والمقربين الى الله، مثلاً يحكى أن أحد أفراد الشرطة من مرتبات

بيضة رسمت عليها صورة الزعيم قاسم وادعى أن دجاجة في بيته قد باضتها بهذا الشكل، وابتدأت الاتصالات ببغداد من تلك اللحظة حول المعجزة الربانية التي منحها الله للقائد، وتتابعت قصص في الثمانينيات من هذا القرن عن أن رجلاً سيظهر في هذا الزمان لينقذ العالم ويحرر القدس وسيكون اسمه (أصدام) يبقى ألف عام، يوفر الأنعام، ويرزق الأنام، ويذهب ليسبي اليهود من جديد، ثم يعود، وظهرت بعد سقوط نظامه في (2003/4/9) حكايات عن إنه سيعود من جديد بعد شهر ليحرر العراق، ثم بعد شهرين أو ثلاثة، وهكذا.

إن نموذجاً متميزاً لهذا الشكل من العبادة يظهر واضحاً وجلياً في أواسط العصر الأموي إذ بدأت ألقاب فخمة بالظهور، مثل (خليفة الله) و (إمام الهدى). ومع بداية العصر العباسي نقرأ أول أشكال الظاهرة في أول خطبة أبي العباس السفاح، إذ يقول: "الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة، وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقرابته وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته" وكان أبو جعفر المنصور يتصرف بإرادة الله، وقد أفصح عن ذلك صراحة في خطبته الشهيرة يوم عرفات إذ قال: "أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه، أعمل بمشيئته وأقسمه بإرادته وأستعطيه بإذنه".

ثم تبدأ الأيديولوجيا الرسمية آنذاك بالتنظير للأمير والحاكم بأمر الله، فالخليفة (سلطان الله في أرضه) فلسفة ابن المقفع الذي شكل انطلاقة (الأيديولوجيا) أو ما يسمى (ظاهرة عبادة الفرد) في رسالته الى أبي جعفر المنصور يقول: "وقد علمنا علماً لا يخالطه الشك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها. وإنها لن يأتيها الصلاح إلا من قبل إمامها، وذلك إن عدد الناس في ضعفتهم وجهالهم الذين لا يستغنون برأي أنفسهم ولا يحملون العلم، فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ينظرون إليهم ويسمعون منهم واهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليها بجد ونصح ومثابرة وقوة جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم وسبباً لأهل الصلاح من خواصهم". ثم تدرجت الظاهرة لتصل الى أعلى مراحلها في دولة السلاطنة والأمراء، الدولة العثمانية، لتصل أخيراً الى التاريخ الحديث، فكان للمجتمع العراقي حصته منها.

وفي أواسط القرن الماضي خلعت أوربا آخر آلهتها، أدولف هتلر ثم جوزيف ستالين، وهجرت آخر طقوس عبادة الفرد الملهم والمتخم بالإرادة الإلهية، ما دفع السوسيولوجيا الغربية الى أن تقف طويلاً أمام هذه الظاهرة، فتعددت الدراسات ومعها المفاهيم مثل (الزعامة الملهمة) و (النخبة الحاكمة) و (السلطة الكاريزمية) عند ماكس فيبر، وكتب بعده ريمون ارون في (شخصنة السلطة)، وآخرون حاولوا تفسير الظاهرة برؤية انثرو- سيكولوجية، فعزوها الى عبادة الأب في المجتمعات الدينية القديمة. لقد كان هناك "تقديس عام للسلطة ينبع من التماهي اللاواعي مع الأب والملك والرب، مع الأسرة والدولة وملكوت الرب، فسجل أحدهم في القرن الثامن عشر يقول: (الملوك هم آلهتنا المنظورون، وهم على نحو ما آباؤنا أيضاً)، على نحو ما يذكر مندلا في كتابه (الزمن والرواية) وعزا جورج لوكاش الظاهرة الى تداخل البنى الاجتماعية (الفوقية مع التحتية) في المجتمعات ما قبل الرأسمالية، بينما ذهب بانو في تحليل الظاهرة الى طبيعة المجتمع (الخراجي) نفسه، ويقصد هنا (مجتمعات ما قبل الرأسمالية) التي تعتمد الريع أساساً في اقتصادها، يقول الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه (العقل السياسي العربي)، وهكذا تتكون في الشرق أيديولوجيا تربط بين التصورات الاجتماعية والتصورات الكونية في مفهوم الدولة، التي من النمط الخراجي، أيديولوجيا قوامها منظومة من المفاهيم والتصورات المركبة المتداخلة توحد بين الإلوهية والطاغية المستبد والوظائف السياسية القانونية. إنها وحدة السماوي والأرضي، التي تعكس وتجد تعبيرها في وحدة الدولة والمجتمع).

يعد تحليل ميشيل فوكو الأقرب الى واقع التحليل بدمجه مع التحليل الاجتماعي لماكس فيبر. يذهب فوكو الى أن البابليين يعتبرون إلههم راعياً يقود الناس الى المرعى ويتولى إطعامهم، وفي مصر الفرعونية كان من جملة الأدعية عندهم هذا الدعاء الذي يتوجهون به الى الإله: "أيها الراعي الذي يسهر عندما ينام الناس جميعاً، أنت الذي تطعم رعيتك بكل ما هو جيد" يقول فوكو: (إن الجمع بين الملك والإله هنا، من خلال إطلاق لفظ (الراعي) على كل منهما شيء يفرض نفسه لأنهما يقومان بدور واحد)، ويتحدث فوكو - وإن كان على مجتمعات عراقية ومصرية قديمة - عن وحدة الدور المقدم، الدور الاجتماعي الواحد والتداخل الذي يقوم به كل من الملك والإله فهو تحديداً ما يتلبد وراء ظاهرة عبادة الفرد في المجتمعات الشرقية القديمة في الأقل.

وبالتالي فإن تقلص وانكماش الوظائف الاجتماعية التي كانت من نصيب الآلهة في المجتمعات القديمة - في يوم ما - كان الخطوة الأولى نحو الإله الأوحد، فلقد كان مجتمع الآلهة يتكون من 300 إله أو أكثر، لكل منهم وظائف مختلفة ومتخصصة. تطور بعدها المجتمع الإنساني وتمكن بإنسانه من تبني الكثير من الوظائف والقيام بالكثير من الأعمال في القرن الثالث قبل الميلاد ما جعل مجتمع الآلهة يتقلص الى 60 إلهاً ثم الى 20 ثم الى عدد أصابع اليد الواحدة. والعكس صحيح، فنقول إن استطاعة الزعيم (الإله أو الأمير المسند بالإرادة المقدسة) على أن يستحوذ ويحتكر لنفسه كل الوظائف الاجتماعية والمؤسسات، سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية في المجتمع تجعل تأليه المجتمع للفرد المستحوذ على كل شيء مسألة في غاية السهولة والإمكان.

إن مقولة (عبادة الفرد) مقولة سوسيولوجية، بل هي إحدى أهم مقولات علم الاجتماع السياسي، لذا فإن من الطبيعي أن تجد لها جذوراً وأسساً ضخمة في قلب الواقع الاجتماعي وظروفه وملابساته، وهذا بالتحديد ما يجعل منها ظاهرة معقدة عامة وعالمية لا تخص المجتمع العراقي بعينه، ولكن دراسة المجتمع العراقي كنموذج لها ليس إلا محاولة ذاتية لفهم الظاهرة ونقدها.

في العراق لم تكن طقوس عبادة الملك

المجتمع الملكي العراقي، لكن صغر المجتمع وتخلفه وضياعه في العباءة البريطانية آنذاك جعل هذه الطقوس غير ذات انتشار وليست بالحجم الذي يمكن تخيله أو تحسس مظاهره مثلما ظهرت واضحة بعد سقوط الملكية في العراق الحديث في فترة حكم الزعيم عبد الكريم قاسم (1958-1963) أو عبد السلام عارف (1963-1966) والحقبة البعثية المظلمة وظهور صدام حسين (1968-2003).

من خلال ذلك نستطيع أن نجمل هنا بعضاً من أهم الظروف والملابسات الاجتماعية التي كانت وراء، أو رافقت، ظاهرة عبادة الفرد في المجتمع العراقي المعاصر. الملاحظ أولاً أن تغير وانتقال السلطة السياسية في هذه المراحل الثلاث في تاريخ المجتمع العراقي لم يكن انتقالاً سلمياً أو تداولاً سلمياً لها بالمفهوم الحديث، إنما كان يعتمد ممارسة العنف الى أقصى درجاته، واقتصرت آلية التحول على الدبابة والطائرة ورغم الفوارق الكبيرة بين تلك المراحل، لكن الواضح هو سيادة نموذج الانقلاب السياسي للاستيلاء على السلطة السياسية في المجتمع العراقي، ثم بعد ذلك قد يجد الانقلاب دعماً شعبياً عظيماً كما حدث مع عبد الكريم قاسم، أو لم يجد غير الدم واللاشرعية مثلما حدث في انقلابات تموز الأسود 1968 والملاحظ أن دور العنف في تحويل المجتمع سياسياً رافق وبشدة ظاهرة العبادة للفرد، ليس في العراق بل تجارب عديدة من العالم، في مصر بعد إنقلاب 1952 مع عبد الناصر وكوبا مع فيدل كاسترو وإيران مع آية الله الخميني وليبيا بعد انقلاب 1969 مع القذافي وفي الاتحاد السوفيتي بعد موت لينين واستيلاء جوزيف ستالين على الحكم بالقوة وتصفيته لرموز الثورة البلشفية في محاكمات موسكو الأولى والثانية، في رومانيا مع جاوجيسكو.. و.. و..

والملاحظة الثانية هي تفسخ وانحلال وغياب كامل للمؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وفقدان المجتمع قدرته على أداء وظائفه ومسؤولياته وواجباته، وبالتالي استحواذ الفرد الحاكم أو الزعيم عليها واحتكارها لنفسه واستخدامها فيما بعد كوسيلة لابتزاز المجتمع واستعباده.

أما الملاحظة الثالثة فهي عسكرة المجتمع وتركيز الاهتمام على دعم المؤسسة العسكرية دعماً يفوق الدعم الذي يقدم للمؤسسات المدنية الأخرى، لتتحول المؤسسة العسكرية الى مؤسسة أخطبوطية ذات فروع كبيرة ومخيفة، مثل المخابرات العسكرية والمدنية والاستخبارات والأمن، وفدائيي صدام وجيش القدس وجيش الحزب والجيش الشعبي والحرس الخاص والجيش الخاص وجيش الانتحاريين.. و.. و.. ويشكل هذا التطور والدعم رداً للجميل لهذه المؤسسة التي كانت السبب في وصوله الى السلطة والسوط الذي يلوح به للشعب وللجماعة، الذي هو أعنف (كما يروى) من السوط الذي يلوح لنا به الفكر الديني.

والملاحظة الرابعة هي قيام جميع أولئك الحكام بتصفية المعارضة السياسية والاجتماعية والدينية تصفية مريعة، اعتقاداً منهم بدوام السلطة والسيطرة والاستعباد. وما فعله صدام حسين، ابتداءً من عبد الرزاق النايف والداوود في ليلة 30 تموز الأسود 1968، الذي هو انقلاب على انقلاب 17 تموز، ثم تصفية محمد محجوب ومحمد عايش والحمداني وأحمد حسن البكر بمجرد استلامه السلطة، انتهاء كما هو معروف بالمقابر الجماعية، أقول: ما فعله صدام حسين تجسيد واضح لذلك.

وأخيراً، استخدامهم للمؤسسة الدينية، لإضفاء صفة الشرعية ومظاهر القدسية الدينية على شخص الفرد الحاكم، بينما تقوم المؤسسة الإعلامية بنشر صورهم في كل مكان والمبالغة في مدحهم وتمجيد أفعالهم وأسطرة تاريخهم وصفاتهم ونشر وكتابة القصائد والأغاني في مدحهم وعبادتهم. وكل ذلك يجد بالمقابل ما يفعله وينميه في الطرف الآخر المجتمع السلبي أثر عمليات الترويض والتعنيف وعمليات غسيل المخ والإبادة التي يتعرض إليها كل يوم والتي تجعل إنسانه خانعاً مستكيناً لقدره لا يجد سوى التفكير بالقائد الضرورة ومكافآته الجزية وكرمه اللامحدود. (إنه ملك المصائر، وواهب الأرزاق، وقاطع الأعناق) كما يقول نزار قباني في (سيرة سيف عربي).

العرب والتنمية: الاستغراق الآيديولوجي

إسماعيل نوري الربيعي

ركام الإرث التاريخي

لوعي من الداخل، كأنها لوصفة التي لا يمكن إغفالها، في حركة المجتمع وحالات التطلع نحو تحقيق الغايات والأهداف. إنها الحافز الذي يحرك الإمكانات المتاحة ويدفعها للتفاعل مع الواقع والتفاصيل برؤية قوامها الحقيقة والتدبر لصادق للعلاقات السائدة. وعلى الرغم من مضي السنوات لطوال من عمر الرغبة لجامحة التي استعرت في العقل العربي من أجل تدبيج مشروع لنهضة والشروع في طريق لتقدم. إلا أن الشغلات الجانبية لتي كرس العرب جل تفكيرهم فيها، جعلهم ينأون بعيداً عن لهدف الأساس. فأحوالهم لا تختلف عن حال من أقدم على تجهيز السرج قبل شراء لحصان، إذ ركزوا الجهود على الإيغال في مساحات التنظير وتوجيه الاهتمام نحو القضايا لكبرى، حتى أفرزت الأوضاع عن تباعد فاضح، تشكل في أعقابه ثقل عسير أو صعب حمله وتحمله. فالأهداف والطموحات واسعة وكبيرة، والإمكانات المتاحة تشير الى فقر وهزال يعم المرافق جميعاً، بدءاً بانعدام البنى الارتكازية مروراً بتركيز الخلل البنيوي المستقر في العلاقات بين القوى الاجتماعية، هذا بالإضافة الى ركام الإرث التاريخي الطويل من الصراعات والاحترابات والانقسامات، وتعاقب الهيمنة والتسلط الأجنبي.

عبر هذه الشغلات تسللت الأيديولوجيا حتى صارت الداء الذي يعسر الخلاص منه. بل أن حالة الانتقال الاجتماعي الذي شهده الوطن العربي، إنما باتت تحدد ملامح الدأب نحو تنويع المقاطعات، فإذا كانت الفئوية وتوزيعات القوى التي ترصد ملامح الحاضرة والبادية، أو القبيلة ورجل الدولة السلطوي، فإن وقائع الدولة القطرية باتت تفصح عن نتائج أخرى، تمثلت في هذا الإفراط المبالغ فيه من التطلع الأيديولوجي. حتى أضحى البيت الواحد يمور بالصراعات المباشرة ما بين الاتجاهات المتناحرة والمختلفة، وهكذا جاءت التطورات لتفصح عن تعميق حدة الأثر، الذي تحول من مجاله السياسي الى الحقل الاجتماعي، لتغدو المسألة برمتها، عبارة عن اختلالات عائلية، جسدتها هذه الحدة والعنف واستشراء ملامح التصادم بين التيارات المختلفة.

منذ أول تدخل للعسكر في شؤون السياسة على يد الجنرال بكر صدقي في العراق عام 1936. وصراعات القوى تستفحل وتقوى شوكتها، حتى تنامت التدخلات وراحت تقدم مسوغاتها تحت مبررات وذرائع ومفاهيم، غلب عليها طابع الإغراق في الوطنية والإغراق أيضاً في التخوين، والاعتناق للتقدمية على حساب تحميل مفهوم المرجعية جميع الرزايا. ومن هذا الاندلاق العاطفي حقق العرب تقدمهم من خلال

صار يمثل الطمأنينة والسلوى. في حين أن التقدم الحقيقي غاب في مواصفات الشرعية الثورية.

تدبيج المقولات

فوضت المفاهيم وتم تدجين المقولات وتدبيجها وفق مقومات التقدمي الصالح، الذي جاء من سوح النضال الثوري ورفع الشعارات والهتاف العالي بسقوط الاستعمار أولاً والوزارة ثانياً. وفي ظل هذا الاحتدام من التنافرات والاحتقانات. قيض للتقدميين بلوغ سدة الحكم والوصول الى السلطة، فماذا كانت النتيجة؟ عندما زحف العسكر بدباباتهم نحو السلطة عمدوا الى عسكرة المجتمع، حتى غدا حقل تجارب، يشهد كل يوم شداً وجذباً واحترابات واتهامية جاهزة. وبذات القدر ينطبق هذا الأمر على الثوريين الذين جسدوا بشرعتهم، ملامح البحث عن مكافأة مناضليهم على حساب البناء الصحيح والصميم لخطوات التقدم. ليتم تكريس ثقافة القطيع المستندة الى: من لم يكن معي فهو بالطبع ضدي!! وعبر تكريس آيديولوجي شديد الإرباك تعرضت المفاصل الرئيسة للدولة والمجتمع الى ضيعة و(طابو صرف) يسوح فيها المناضلون وأبناؤهم وقبيلتهم. ليعود المجتمع العربي القهقرى على صعيد الوعي التاريخي وليتم تكريس الثقافة الملوكية في أرضه قوامها الخواء وتفريغ المحتوى الأصيل والخلاق في المجتمع. وإذا ما كانت الدولة القطرية والتي لا شك أنها من خلق القوى الاستعمارية، قد بدأت معالم الاشتغال والعمل على تثبيت تقاليد الدولة الحديثة. من خلال توسيع نطاق عمل المؤسسات ورعاية التطلع نحو الانتماء الى حقل الاشتغال وترسيخ قيم العمل. فإن الأمر اللافت هنا يكون قوامه في هذا الانفلات الذي لا يني أن تتوسع شقته وتتعمق ملامحه على صعيد الواقع.

حتى غدت أرفع المناصب السياسية والعسكرية والعلمية حتى، والتي تتطلب خبرة ومراناً وأكداساً من الشهادات الأصيلة نهباً للطامعين من أبناء المقربين المهيمنين على سدة السلطة. وبإزاء تكريس هذه الفعاليات التي لا تنقطع، صار الاتجاه يبرز وبكثافة عالية، نحو تعميق حدة الخراب الأخلاقي والقيمي. فالقوة هي المرجع الأوحد، والصالح هي الفاردة ملامحها على كل شيء. فيما يكون الجميع من أبناء المجتمع مجرد تابعين فاقدين لإرادة الابتكار والتطوير، بل أن الطامح منهم يمكن أن يتعرض لتهمة التخوين التي تجهزها أجهزة الرقابة والأمن. والتي غدت معلماً بارزاً ومشروعاً قابلاً للتطوير بفضل العسكر والثوريين، الذين آمنوا برسوخ لا يرقى إليه الشك (بأنهم الدولة والدولة هم)، ليغيب وسط هذه اللجة من التناحرات موضوع النمو الذي يتعلق اصلاً بمفهوم الدولة.

استبدال المفاهيم

التحصن في مجال التأجيلات وإطلاق الوعود عن تنفيذ الدستور والديمقراطية وإطلاق الحريات، أخضع دائماً للقراءة وتفحص مجال التدجين للمجتمع. فإحكام القبضة وإرخاؤها يحتاج الى عين مدربة حاذقة، ترصد ملامح الضعف والقوة، ليس في الكيان الاقتصادي، ولا في مواطن الفعل الاجتماعي، ولا حتى في مقومات السلوك مع البلدان الأخرى. بل إن الانشغال يتوجه نحو مشروع السلطة، الذي غدا الغاية والأصل. وأما ما عداه فأمر يسير وقابل للمعالجة.

وهكذا يتم الاستبدال في أعتى صوره، عندما يتم تحويل مفهوم التقدم من مجاله الخصب الواسع والمتعلق بالوظائف الأصيلة والرئيسة في مختلف الحقول، ليكون مقتصراً على مجال واحد لا يقبل الزحزحة أو الحركة حيث الهوس بالانشغال بعصاب المناصب والحفاظ على الكراسي والبقاء في سدة الحكم الى أقصى فترة ممكنة. ومن هذا المكن يكون الاتجاه نحو توسيع مجالات التحسب، وتضييق الفعاليات الإنسانية، بل والعمل على تسيير كل شيء في خدمة السلطان. حتى ليكون الصوت الأنمي وقد تم مسخه، من خلال الحث على استنطاقه وترويضه في دائرة مغلقة من التعاويذ والأحاجي، وكأن الأمر ينبئ عن حفلة يقيمها درويش في قرية نائية. حيث الاستناد الى خلق الأجواء والمؤثرات ومحاولة السيطرة على عقول البسطاء من الناس.

لقد صير نحو تبسيط العقول، من أجل تيسير الهيمنة والسيطرة عليها. وتم الاستغراق في الإقلال من شأن المجتمع والفرد والإنسان، وصار التطلع بشغف سادي نحو خلخلة عرى العلاقات القديمة، والاشتغال بجدية ملفتة نحو خلق الأجيال الجديدة، التي تدور في فائض من المعاني المكرورة، من أجل السيطرة على العقول وإدراجها في هذا الفضاء المعتم من المقولات المسطحة التي يغيب عنها الوعي وتسودها التهويمات والانفلاتات.

وإزاء كل هذا يكون الحديث عن التنمية والتطوير، وتطويع إرادة العمل والحث على التطلع نحو مجالات التقدم. وكأن الأمر يتعلق برغبة عابرة عنت على العقل في لحظة اشتعال عاطفي. في حين يتم التغافل عن حقيقة رئيسة قوامها أن التطلع نحو التقدم، إنما يمثل فيه مشروع الإنجاز المستند الى أهمية التفاعل بين مؤسسة الدولة باعتبارها كياناً مؤسساً على الشرعية الدستورية، والكيان الاجتماعي بكل تفصيلاته وعلائقياته، من دون انتقاء أو استبعاد أو إقصاءات لاعتبارات سلطوية محضة.

طبيعة الأداء

الدولة الراعية لكم الإنجاز يكون قوامها من عمق الاتجاه الصميم نحو حفز معالم الإنتاج والتأصيل له، من خلال تعميق دور المواطن والنظر إليه باعتباره قيمة عليا، غير قابلة للمساومة أو المداهنة أو حتى الرهان على مستوى المكتسبات التي يمكن أن يحصل عليها. ليكون السؤال الفاصل هل هي من المكرمات المقدمة بمنة من جهة عليا، أم هي حقوق ثابتة وراسخة مستندها التقييم السليم والصحيح لمستوى الإنجاز.

من هذا الفاصل بقي العرب يتساءلون وبحرقة ممضة عن هذا الركود المقيم، في حين أن مجتمعات أخرى وبأقل إمكانات وطاقات وخبرات منها، قيض لها حرق الكثير من المراحل، حتى كان التخطي يشير الى فسحة واسعة بلغت مستوى، يكون من العسير ردها أو تجاوزها. وفي ظل هذه التداعيات تبقى مسألة تظافر الجهود، تفرد بقوامها على مسألة العلاقة بين الدولة والمجتمع. إذ يبقى الإنجاز يستند الى طبيعة الأداء الذي لا يمكن لطرف واحد أن يحظى به، ويمارس من خلاله دور السيد الأوحد. ومن هنا تحديداً تبرز معالم الأزمة العالقة التي لا تجد حلاً لدى العرب.

فقد عمدت الدولة السلطوية الى تنمية التخلف، وراحت تبث معالم قوتها في جميع المفاصل، من دون أن تفكر لحظة بأهمية القوام التفاعلي، الذي تقوم بأدائه المؤسسات والهيئات الأهلية المنبثقة من صميم المجتمع، حيث الإحساس العميق بالحاجات والتداعيات والإشكاليات. وليس من هذا التعامل الفوقي الذي تفرضه إرادة السياسة العليا، المنغمسة في تدبيج مضامين المصالح الخاصة والارتباطات والتحديات الواسعة.

إنها الرؤية الجامعة والشاملة التي تفتح الآفاق أمام الجميع لأداء دوره، من أجل تحقيق الغايات الأوسع، والتي لا ترتبط فقط بالنتائج الاقتصادية المباشرة، بقدر ما تكون فسحة التفاعل منفتحة على المجال الأرحب، الذي يشمل الكيان الثقافي والاجتماعي والسياسي برمته. فالنجاح يقود الى المزيد من التفاعلات الإيجابية، والتي يتم من خلالها تخطي الكثير من الحواجز وتجاوز الكثير من الأخطاء.

في حين أن الفشل يؤدي الى تكريس واقع الأسى وبعثرة الجهود وهدر الطاقات والإمكانات. بل أن المضاعفات الناجمة عنه تفرز الكثير من مكنون القهر والتغييب واللاحضور. فكل حالة لها متطلباتها وإجراءاتها وتكيفاتها الخاصة بها.

فتنظيم الأجهزة والهياكل لا يتوقف على خطوات النجاح، بل هو حاضر أيضاً في صلب الوظيفة الخاسرة، والتي تعمل على إعادة حساباتها، ولكن من ذات السياقات السابقة التي أدت الى الفشل، وما أشبه حال العرب بمثل هذا التوصيف.